

قراءة في كتاب سحر الفضة دراسة أنثروبولوجية لشهيد صادق الطائي

Read the silver magic book Anthropological Study of Shahid Sadiq Al-Taie

مريم شريط*، جامعة حمه لخضر الوادي، nouris_2007@yahoo.fr

كتيبة بغامي، جامعة الحاج لخضر باتنة، katibabegami@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/06/15

تاريخ القبول: 2022/05/14

تاريخ الإرسال: 2022/02/17

ملخص:

تعتبر المندائية الصابئية ديانة وطائفة من أقدم الطوائف في بلاد الرافدين، والتي اختلف بشأنها الكثير من الباحثين، حول نسبهم وعقائدهم وعاداتهم الاجتماعية، ويعود ذلك إلى سرية معتقداتهم وعدم إدراك حقيقتها، ولقد ظل الاهتمام البحثي بديانة الصابئة المندائية لوقت طويل حكرا على الدراسات التاريخية والدينية وحسب، فأغلب ما تم تداوله عن هذه الطائفة كان على شكل روايات ولم نجد دراسات عربية تناولت الموضوع من زاوية أنثروبولوجية ماعدا بعض الدراسات كدراسة الباحثة الأنثروبولوجية الليدي دراوور. وسنحاول في هذا المقال التعريف بطائفة الصابئة المندائية كما يراها الباحث العراقي شهيد صادق الطائي في مؤلفه المعنون: سحر الفضة: سر الماء، ولهذا الغرض قمنا بتناول أهم الأفكار التي طرحها الكاتب حول هذه الطائفة في العراق، والتي تبلورت في التساؤلات: من هم الصابئة المندائية وكيف ظهرت هذه الديانة، ما موطنها الأصلي وما هي المناطق التي يتواجدون فيها، وكيف يعيشون، بماذا يتميز البناء الاجتماعي لهذه الطائفة، وما هي أهم ممارساتهم الاجتماعية وطقوسهم المناسباتية وشعائرهم الدينية، وقبل الاجابة عن هاته التساؤلات كان لا بد من التعرض قبل ذلك لأهم الأدوات التي لجأ إليها الباحث في اطار قيامه بهذا البحث باعتبار أن الدراسة التي نستعرض لها أنثروبولوجية.

الكلمات المفتاحية: سحر الفضة، سر الماء، المندائية، طائفة الصابئة، الكاتب.

* المؤلف المرسل

Abstract:

The Sabian Mandaean religion and sect is considered one of the oldest sects in Mesopotamia, about which many researchers differed about their lineage, beliefs and social customs, due to the secrecy of their beliefs and the lack of realization of their truth. Most of what was circulated about this sect was in the form of novels, and we did not find Arab studies that dealt with the subject from an anthropological angle, except for some studies, such as the study of the anthropological researcher Lady Drawar.

In this article, we will try to define the Sabean-Mandaean sect as seen by the Iraqi researcher Shahid Sadiq al-Tai in his book entitled: The Magic of Silver: The Secret of Water. This religion appeared, what is its original home, what are the areas in which they reside, and how do they live, what is characterized by the social structure of this sect, and what are their most important social practices, occasional rituals and religious rituals, and before answering these questions, it was necessary to be exposed before that to the most important tools that resorted to The researcher referred to it in the context of doing this research, given that the study we are reviewing is anthropological.

Keywords: Silver magic, the secret of water, the Mandaean, Sabean sect, Writer.

مقدمة:

سعى العديد من المفكرين وأوائل الباحثين الأنثروبولوجيين، لاكتشاف مجموعات إنسانية ليست لديها أية مفاهيم أو أفكار تنم عن غياب أي تصورات دينية بداية بالمجتمعات البسيطة الأولى التي تعرّف عليها المفكرون الأوائل من أصحاب الفضول المعرفي الأنثروبولوجي، وجدوا أن مفهوم الإيمان بقوى فوق طبيعية ووجود تصورات ميثالوجية حول خلق الكون كانت موجودة بصورة أو بأخرى في كل المجتمعات البشرية، حتى أكثرها بساطة وبدائية، ولذا اقتضى ذلك أن تزداد كمية التقارير والكتابات التي أعدها المستكشفون والرحالة.

حيث تهتم الأنثروبولوجيا بدراسة الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً وحضارياً: فتدرس أشكال الثقافة وأبنية المجتمعات، وتعتبر ثقافة وبناء المجتمع المندائي جزء وثقافة فرعية من المجتمع العراقي، ولدراسة ثقافة مجتمع طائفة الصابئة المندائيين أهمية خاصة لما تمثله هذه الطائفة والديانة من دور

مهم في نشوء وتطور وتداخل الأديان الحضارات والثقافات على أرض الرافدين يستدعي من الباحثين والكتاب في هذا المجال تسليط الضوء عليها.

ويذكر نبيل عبد الأمير الربيعي في كتابه تاريخ الصابئة المندائيون في العراق «أصولهم ومعتقداتهم»، أن دراسة نحلة الصابئين وهي نحلة من نحل الديانات الرافدينية الأصيلة والقديمة مهمة في دراسة الأديان على العموم، فالمندائيون طائفة عراقية قبل أن تكون أي شيء آخر، بل أنها كما تشير طقوسها صلة الحاضر بالماضي البابلي والأكدني والنبطي في العراق.

والكتاب الذي بين أيدينا يمثل عصاره تحقيقات ميدانية لدراسة أنثروبولوجية حول طائفة وديانة الصابئة القاطنة بالعراق أعدها الباحث العراقي شهيد صادق الطائي، نسعى للقيام بتلخيصه في هذا المقال.

أهمية الدراسة:

إنّ دراسة دين الصابئة المندائيين مهمة جداً للبحث في العقائد الدينية الأخرى، فهي مهمة من حيث المكان والزمان والموضوع لأنها قديمة العلاقة بكل مكان تتعلق به سيرة الأديان الأخرى وبخاصة سيرة الخليل عليه السلام، ثمّ لأنّ لغتها المقدسة تشير إلى زمان متوسط بين اللغات القديمة المهجورة واللغة الأرامية الحديثة، كما أنها ترينا ملتقى التوحيد القديم والوثنية القديمة، وقد نجد فيها الاصطدام بين هاتين العقيدتين فهي ليست ديانة وثنية ولا إيمان لها بالكواكب من جهة، ثمّ لا خلاص مطلقاً فيها من بقايا الوثنية القديمة وتعظيم الكواكب.

1. نماذج اهتمت بالصابئة المندائية:

أول بحث اهتم بديانة الصابئة صدر بالسويد عام 1691م، وأول كتاب ينشر بالعربية عن الدين المندائي هو «مندائي أو الصابئة الأقدمين» لعبد الحميد بن بكر أفندي عبادة (1930)، «طبعة الكتاب الأولى: بغداد، مطبعة الفرات 1927»، كان الكتاب ملخص حوار أجراه عبد الحميد عبادة عام 1925 مع رئيس الصابئة المندائية «الشيخ كنزبر دحّيل بن عبدان» بالناصرية جنوب العراق. (الربيعي، 02 فيفري 2020).

وهناك مؤلفات كتبت عن الطائفة والديانة، أغلبها ورقية غير متاحة حسب ما لاحظناه، مع بعض الكتب المتوفرة بصيغة الكترونية، نذكر منها:

1. نبيل عبد الأمير الربيعي، (2020)، تاريخ الصابئة المندائيون في العراق «أصولهم ومعتقداتهم»، دار الفرات.
2. رؤوف السهاني، (2006)، الصابئة المندائية في إيران، مطبعة دار الحجة البيضاء.
3. الليدي دراوور، (2006)، الصابئة المندائيون، ترجمة: نعيم بدري وغضبان الرومي، المدى للثقافة والنشر وهو غير متاح.

4. محمد نمر المدني، (2009)، الصابئة المندائيون العقيدة والتاريخ منذ ظهور آدم إلى اليوم، الطبعة الأولى، دار مؤسسة رسلان للطباعة.
5. عزيز السباهي، (1996)، أصول الصابئة المندائية معتقداتهم الدينية، دار المدى، سوريا، الطبعة الأولى.
6. (2018)، صادر من تحالف الأقليات العراقية، الصابئة المندائيون حقائق روحية وتاريخية، وهو غير متوفر.

ومن بين الكتب التي توفرت لنا نعرض:

1.1 عزيز سباهي، (1996)، أصول الصابئة المندائية معتقداتهم الدينية، دار المدى،

سوريا:

يورد عزيز سباهي في عمله الموسوم أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، وهو يحتوي 252 صفحة. الديانة المندائية هي أحد الأديان الإبراهيمية وهي أول الأديان الموحدة في التاريخ وبالنظر إلى تعاليمها فإن الدين الإسلامي هو أقرب الديانات إليها من بين كل الديانات والمذاهب، وتمثل الصابئة المندائية أكبر وأهم الفرق الموجودة حالياً، صلاتهم تؤدي ثلاث مرات في اليوم قبيل الشروق، وعند الزوال، وقبيل الغروب، وتستحب أن تكون جماعة، يهتم الصابئة المندائية بالطهارة كثيراً فهي مفروضة على الجنسين، أركان الدين الأساسية التوحيد بالحي الأزلي وواحد أحد (سهوثا ادهي)، والصبغة والتطهر (مصبتا وطماش)، الوضوء والصلاة (ارشاما وبراخا)، الصوم (صوما)، الصدقة والزكاة (زدقا). (سباهي، 1996)

تعقيب: يتوفر الكتاب في صيغة ورقية، ويركز الكاتب على تناول المعتقدات الدينية وعبادات الطائفة بما فيها الصلاة والزكاة والطهارة والصوم. حيث يتقاطع مع شهيد الطائي في المعتقدات التي ذكرها، مع توسع هذا الأخير بتناوله المدن والديمغرافيا المندائية وكذا الايكولوجيا، المهن، والمورفولوجيا، والعلاقات القرابية الطائفة المغتربة.

2.1 رؤوف سبهاني، (2006)، الصابئة المندائية في إيران، مطبعة دار المحجة البيضاء:

يتوفر في صيغة الكترونية وورقية. يدخل كتاب الصابئة المندائية في إيران في دائرة اهتمام الباحثين والطلاب المهتمين بالدراسات التاريخية؛ حيث يقع كتاب الصابئة المندائية في إيران ضمن نطاق تخصص علوم التاريخ والفروع ذات الصلة من الجغرافيا والآثار وغيرها من التخصصات الاجتماعية. (سبهاني، 2006)

تعقيب: يركز المؤلف رؤوف سبهاني على طائفة الصابئة المندائية في إيران خلافاً لمجال الدراسة الحالي المتمثل في العراق كما ينم التناول من وجهة نظر تاريخية.

3.1 نبيل عبد الأمير الربيعي، (2020)، تاريخ الصّابنة المندائيون في العراق «أصولهم ومعتقداتهم»، دارالفرات:

يرى نبيل عبد الأمير الربيعي أنه اختلف الكثير من العلماء والمستشرقين والباحثين في نسبهم وعقائدهم وعوائدهم الاجتماعية وخاصة الأمة المندائية، وبسبب سرية معتقداتهم وعدم إدراك حقائقهم، والوقوف على أصول أوامرهم ونواهيهم.

فالصابنة المندائيون أقدم الجماعات التي عاشت في بلاد الرافدين، حيث هم قوم ساميون، وقد اختلف الباحثون والدارسون في زمن ظهور العقيدة المندائية كما اختلفوا في الموطن الأصلي للمندائيين، وبلادهم وموطنهم الأصلي بلاد الرافدين، والدليل هو بعض المخلفات السومرية التي ما زالت في هذه العقيدة وطريقة كتابة الأدب المندائي التي تتشابه مع صيغة كتابة الأدب البابلي وبخاصة في لغة التلمود، ناهيك عن اللغة ومفرداتها التي ما زالت شائعة في الجنوب العراقي خاصة، وإنهم يحفظون شريعة آدم عليه السلام الذي يعدونه أول أنبيائهم، ويعظمون شيت وسام في نصوص كتبهم الدينية، ويعدونهم معلمهم وأنبيائهم حتى زمن النبي يحيى بن زكريا عليه السلام، الذي يعدونه هو الآخر نبي لهم ومعلمهم الذي أعاد بعث ديانتهم القديمة، وأجرى رسم التعميد وهو السُنّة التي جرت لأدم عليه السلام وهم عليها دائبون.

وديانتهم من أقدم الديانات الروحية في العالم، وهم أحد الأدلة الحية على حضارة بلاد الرافدين، لكن لم يتبق منهم سوى بضعة آلاف بعد أن عاشوا على أرض العراق عشرات القرون. وقد أطلق عليهم أهم التسميات في بلاد الرافدين منها: المندائيون. من مندأ أي العارفون بوجود الحي العظيم أي الموحدون. والناصورائيون. وهي تسمية قديمة جداً، وتعني المتبحرين أو العارفين بأسرار الحياة أو المراقبين. والصابنة. ومن «صبا» أي المصطبغون (المعمدون) باسم الرب العظيم. والمغتسلة. من غسل أي تطهر ونظف وأطلقها المؤرخون العرب. وذلك لكثرة اغتسالهم بالماء. وأطلق عليهم تسمية «شلماني» من شلم أي سلم، وهي تسمية آرامية مندائية تعني المسالم. وأطلق عليهم «أبني أنهورا». أي أبناء النور وهي تسمية أطلقت عليهم من كتبهم الدينية. وأطلق عليهم «اخشيطي» من كَشِطَ أي أصحاب الحق أو أبناء العهد، أيضاً أطلقت عليهم في كتبهم الدينية.

كما أن نصوصهم الدينية التي ما زال المندائيون يحتفظون بها تبرز التوحيد واضحاً في عقيدتهم، وترتكز على الخلق والخالق وصراعات كينونة العوالم والعالم الآخر النوراني وحتمية العودة إليه، وتميزت طقوسهم الدينية وشعائرها التي ارتبطت بالماء والتعميد به بشكل طهارة للنفس والبدن، وكانت بداية التعميد للملاك «هيبيل زيو» وتعميد آدم وشيت وسام عليهم السلام. ولذلك تجد قريهم من الأنهار ومواقع وفرة المياه التي لم يبتعدوا عنها لأي سبب كي لا يتوقف عندهم الطقس الديني.

يشير كتابهم المقدس «الكنز الربّي» إلى أن المعرفة قد كشفت لأدم من الله الحي الأزلّي، وهو الذي سجدت له الملائكة، بل كشفت له المعرفة وعُلم الأسماء، كما أن الطوفان لم يبق من البشرية إلا نوحاً وأولاده الثلاثة الذين تشكلت منهم دورة حياة جديدة، هم «سام وحام ويافت»، ومن هؤلاء الثلاثة جاءت القبائل والشعوب وجاءت لغاتها.

كما أن لغتهم المندائية يصنفها اللغويون بأنها واحدة من عائلة اللغة السامية، ويعودونها الفرع النقي للغة الآرامية الشرقية في بلاد الرافدين، التي اشتملت على الآرامية الشمالية لغة الآشوريين والآرامية الجنوبيّة لغة البابليين. وإن وجود المندائيين سابق لظهور اللغة المندائية، وقد أكدت الحفريات التي تمت قرب مدينة الرقّة في أعالي نهر الفرات وكذلك في جنوب العراق في أطلال تلّو تم العثور على عملات نقدية تحتوي كتابات تبين أنها قد كتبت بأبجدية اللغة المندائية، ومن خلال أسماء وصور الملوك الظاهرة في هذه النقود ومقابلتها مع مصادر المعلومات الرومانية واليونانية المتوافرة تبين أن تاريخ أقدم النقود التي تم العثور عليها لحد الآن إلى حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، أي عام 165 ق.م كما ذكر ذلك الراحل عزيز سباهي في كتابه «أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية».

تاريخ الصّابئة المندائيون في العراق «أصولهم ومعتقداتهم». الكتاب يتضمن (13) فصلاً، والذي تجاوز (500) هذا ما سعى الباحث لتقدمه في كتابه. (الربيعي، تاريخ الصابئة المندائيون في العراق أصولهم ومعتقداتهم، 2020)

تعقيب: تتوافق كثير من المعلومات التي أورها نبيل عبد الأمير الربيعي مع ما كتبه شهيد صادق الطائي، وبالرغم من أن كتابه من الحجم الكبير غير أن الدراسة التي قدمها الربيعي تنسم بطابع تاريخي، فيما تغلب الصبغة الأنثروبولوجية على الكتاب الذي نحن بصده واستعماله لأدوات البحث الأنثروبولوجية كالملاحظة بالمشاركة والمقابلات... ان الكتاب عصارة تجربة معيشة أجراها الكاتب من عين المكان وهي ميزة هذا المؤلف الذي دفعنا لعرضه في هذا البحث.

4.1 محمد نمر المدني، (2009)، الصابئة المندائيون - العقيدة والتاريخ، داررسلان للطباعة والنشر والتوزيع. 432 صفحة متاح الكتروني:

يوضح حقيقة الصابئة المندائية وأصولها التاريخية والعقائدية ويبرهن على إيمان الصابئة وتوحيدهم لله تعالى ونبيهم يحيى عليه السلام ومشاركتهم في بناء الدولة الإسلامية وتمتعهم فيها بكل الحقوق وبروز أعلام ومشهورين منهم وتأثيراتها في الصوفية الإسلامية وغيرها من الفرق الإسلامية وفي المسيحية واليهودية في بعض جوانبها واعتبارها أقدم ديانة سماوية في الأرض. تعقيب: كما لاحظنا في النماذج السابقة فإن الأعمال التي تهتم بالصابئة تركز بدرجة أولى على الجانب العقائدي والتاريخي، كما هو الحال عند محمد نمر المدني، ويتجلى هدف بحثنا هنا في التعريف بهذه

الطائفة والديانة أكثر من ابراز التميز والفوارق التي يتمتع بها المؤلف الذي بين أيدينا، كما يهمننا تقديم الكتاب في سياق أنثروبولوجي. (المدني، 2009)

2. التعريف بالمؤلف والمؤلف

سحر الفضة سر الماء: مؤلف من اعداد الكاتب والباحث العراقي شهيد صادق الطائي، يمثل عصارة تحقيقات ميدانية لدراسة أنثروبولوجية حول طائفة وديانة الصابئة القاطنة بالعراق، أجراها خلال مرحلتي الليسانس والماجستير في العراق جامعة بغداد في الفترة بين 2001 إلى غاية 2005، لتظهر في شكل كتاب صادر عن المجلس الأعلى للثقافة سنة 2011 يتألف من 237 صفحة، موزعة على سبعة فصول، وتعود دلالة التسمية إلى مكانة الماء في جميع طقوس وممارسات الشعب المندائي، والقارئ لهذا العمل يستنتج أن الكاتب قد استوحى هاته التسمية لما للماء من دلالة في كل طقوس وممارسات المجتمع الصابئي.

ولقد كان اهتمام الكاتب بالطائفة قديم وذلك في محاولة منه للتعرف أكثر عن بعض أصدقائه، وقد تجسد هذا الاهتمام في العام 2001، حين اختاره الباحث كموضوع للدراسة لنيل شهادة الليسانس بقسم الاجتماع جامعة بغداد: الصابئة المندائية دراسة أنثروبولوجية، ثم تسجيل الموضوع لنيل شهادة الماجستير حتى العام 2005.

شهيد صادق الطائي: باحث وكاتب عراقي من مواليد بغداد 1965 متحصل على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع سنة 2010، مهتم بالبحث في الشأن العراقي وله العديد من الأعمال الأكاديمية، كما يعد باحث ومعد برامج سياسية، ونشر أيضا العديد من المواضيع في الصحف والمجلات العراقية والعربية. (الطائي، 2005)

3. أدوات الدراسة

لغرض انجاز التحقيقات الميدانية استعان الباحث بعدة وسائل تتمثل في :

- الملاحظة المباشرة: اعتمدها الباحث لملاحظة الطقوس والاحتفالات والمناسبات الاجتماعية (مثل مراسم الأعياد، والأعراس ومجالس العزاء) للتعرف عن كئيب على السلوك الاجتماعي للطائفة.
- المقابلات: غير الرسمية مع رجال الدين، والقائمين على لجان شؤون الطائفة لاكتشاف سلوكيات لم تكشفها الملاحظة كواقع المرأة المندائية اليوم، وذلك بمقابلة عدد من الصابئات خصوصا.
- المخبرون: وهم عدد من الأصدقاء من أبناء الطائفة الذين تربطهم بالكاتب علاقات مودة واحترام، مثقفون دينيا لتزويد الباحث بالمعلومات التي استعصى عليه فهمها بالطرق السابقة والكتب الدينية.

- الكتب الدينية والأدبيات المندائية: قام الكاتب بالاطلاع الواسع والمعمق للبحوث والدراسات المكتوبة حول الطائفة من أبنائها وغيرهم المترجمة للعربية، إضافة لاطلاعه على دوريات ومطبوعات الطائفة، ومواقع الإنترنت الخاصة بها للوقوف على أهم التطورات المتعلقة بها.

4. عرض فصول الكتاب ومباحثه

ورد الكتاب في شكل فصول ومباحث وهي كما يأتي:

الفصل الأول: مجالات البحث والواقع الأيكولوجي والبشري (ص 13-40)

المبحث الأول: المجال المكاني والزمني

تضمنت مجالات البحث على:

- المجال البشري والمكاني:

يتركز أغلب أفرادها في العراق وإيران وبرغم كثافة جوها في إيران إلا أن العراق هو الموطن الأساس لها، ففي إيران يوجد ما يفوق ثلاثون ألف مندائي حسب صباح الموسوي، إلا أنهم لم يشاركوا في البرلمان الإيراني كبقية الأقليات الدينية كاليهود والزرادشتيين والأرمن.

ويأتي في المرتبة الثانية من الكثافة السكانية الوجود العراقي في الجنوب ومناطق الأهوار والأنهار ذات الوفرة المائية، فبعدما تأسست الدولة العراقية سنة 1921 وتدوين حقوق الأقليات في الدستور العراقي حدثت هجرات كبيرة نحو المدن الكبرى كالبصرة وبغداد للدراسة والعمل.

وفي منتصف القرن العشرين ومع انتقال دجيل الشيخ عيدان إلى بغداد الذي كان بدرجة كثيرة "رأس الطائفة" أصبحت الكثافة السكانية للطائفة في بغداد إضافة إلى تجمعات صغيرة للمدن الأخرى.

وبذلك تصحح بغداد المجال المكاني الرئيسي للدراسة، لأن فيها التجمع الأكبر والرئاسة الروحية للطائفة في المندى (المعبد) الرئيسي في بغداد على ضفة الدجلة في منطقة القادسية، وفيها المجالس التي تدير شؤون الطائفة مثل مجلس العموم للعوائل المندائية ومجلس الشؤون والمجلس الروحاني، وتصدر فيها أهم المطبوعات المندائية.

إضافة لزيارة ومشاهدة مجتمعاتها ومعابدها في مدن الجنوب واللقاءات مع الأعضاء في مجالس شؤون الطائفة الفرعية في المحافظات حين قدومهم إلى مقر رئاسة الطائفة ببغداد.

وإطلاع الباحث كذلك على مواقع الإنترنت فيما يتعلق بشؤون الجاليات الطائفة في مختلف بلدان العالم، كتنشر المقالات، الدراسات، المتابعات وتغطية الأنشطة والجمعيات في المهجر. بالرغم من كون تركيز الدراسة على طائفة العراق، مع ذلك تطرق الباحث للطائفة في المهجر لمعرفة التغيير الاجتماعي وتحديات الحفاظ على الهوية الاجتماعية.

- المجال الزمني:

يعود اهتمام الباحث كما سبقت الإشارة إليه في المقدمة إلى رغبة قديمة انحصرت الدراسة فيها من سنة 2001 حتى نيسان 2005، وذلك خلال مرحلتي الليسانس والماجستير.

المبحث الثاني: المواقع والإيكولوجيا

عاشت طائفة الصابئة لآلاف السنين في مدن ضفاف الأهوار، انتقلوا بعدها إلى مدن العراق الكبرى، كما انتقل بعضهم إلى المهجر.

بداية تعبر الإيكولوجيا البشرية (Human ecology) عن العلاقة بين البناء الاجتماعي والبيئة المحيطة بالمجتمع.

حيث استعمل عالم الأحياء الألماني أرنست هيكل Arnst haeckel هذا المصطلح للإشارة إلى العلاقات المتبادلة بين النباتات والحيوانات التي توجد معا في البيئة. بصورة عامة يمكن اعتبار الإيكولوجيا هي ذلك التفاعل القائم بين الكائن وبيئته ونتائج ذلك التفاعل. وفي حالة دراسة البيئة التي يعيش فيها المندائيون وعلاقتهم بهذه البيئة في العراق، حيث يجد الباحث علاقة قوية واضحة بين البيئة وبين أفراد الطائفة في قريتهم من مجاري المياه (حيث عاشوا ويعيشون على ندى قرون في مناطق ويرة بالماء، وهي دجلة والفرات، لأن توفر المياه شرط واجب للكثير من الطقوس الدينية). ومع ذلك فبعض العوامل الإيكولوجية تقف دون أن تؤثر على البناء الاجتماعي للطائفة. فالمحيط السكاني الذي يحيط بأبناء الطائفة في الجنوب مثلا مبني على أسس قبلية صارمة وعنيفة، في ظل جوار المسلمين الذين يعملون في زراعة المحاصيل الاستراتيجية (الحبوب) إضافة إلى الصيد (الطيور والأسماك)، وتربية الحيوانات (الأبقار، الأغنام)، مع هذا فنادرا ما يشتغل مندائي صابئ في هذه المن. بالرغم من مساعدة الظروف الإيكولوجية لذلك، وهذا لأن الزراعة تعتمد على السقي وقد تنشأ أغلب النزاعات العشائرية بسببه، والصابئة أقلية مسالمة وضعيفة، وكذلك الحال بالنسبة للحيوانات التي تتطلب القوة للدفاع عن حلالهم في حالات الغارات القبلية. فمالوا بذلك لزراعة الخضروات الاستهلاكية والدواجن، مع اعتمادهم على تأمين حيواناتهم عند المسلمين بالاتفاق على أجر محدد، الذي يتعهد بعنايتها ورعاها وحمايتها كالأبقار.

ولقد عانت طائفة الصابئة من تمييز اجتماعي ضدهم، غير أنهم تحصلوا على مكانة مهمة في المجتمع لكونهم حرفيين ممتازين يحتاج المجتمع لمهاراتهم ومنتجاتهم، وهم يمثلون الطبقة الوسطى في النسق الاقتصادي بين الأثرياء والفقراء حسب تصنيف د. شاكر مصطفى سليم في التراتب الاجتماعي لقرية الجبايش، وهو ما يعكس أن الطائفة مرفوضة ومضطهدة اجتماعيا، غير أنه كان لها هامش من الاستقلالية تمارس فيه طقوسها، وهو الأهم بالنسبة لأفرادها.

- الأهوار:

تعتبر إحدى أقدم وأبرز البيئات للإيكولوجية التي ارتبط وجود الصابئة المندائيين بها، وهي مناطق منخفضة من أراضي السهل الرسوبي يغمرها الماء. ارتبط وجود المندائيين منذ أقدم العصور،

ولقد اشار ابن النديم في كتابه الفهرست إلى ذلك بقوله: المغتسلة كثيرون بنواحي (الأهوار) البطائح، يقولون بالاعتسال ويغسلون كل ما يأكلون. حيث كانت الأهوار تحوي غابات القصب والبردي مع وفرة غذائية حيوانية ونباتية وبذلك كانت بيئة مثالية لاحتواء المندائيين من الاضطهاد وهو أحد الأسباب في بقائهم. لذلك كانت تدخل عوائل المندائيين تحت حمايتهم مقابل توفير الحماية لهم وعدم المشاركة في القتال لحرمة ذلك دينيا وقله عددهم، وذلك مقابل دفعهم للرسم أو الضرائب لأجل تفرغهم للعمل. ويلاحظ الكاتب أن المندائيين في مدن الأهوار كانوا يسعون لتدريس أبنائهم، لشعورهم بأهمية دخول هؤلاء الأخيرين لسلك الوظيفة الحكومية حيث درس البعض في معاهد المعلمين مثلا ثم عادوا لمدارس مدن الأهوار لتدريس الأطفال.

- المدن العراقية الكبرى (بغداد، البصرة):

بدأت هجرة المندائيين نحو المدن الكبرى مع بداية القرن 20م وأولها البصرة، فحدثت تحولات وتغيرات مهمة في البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الربع الأخير للقرن 19، ومنها استقرار وتوسع الملكية الخاصة، ووضع الملكية في إطار أسس قانونية من خلال قوانين الأراضي التي صدرت في 1858 و1932 مما أدى إلى تماسك سلطة الدولة ومركزيتها وانتشار الاتصالات ونمو المدن. كل ذلك جعل الشيخ العشائري القديم يتحول إلى ملاك أو إقطاعي وكانت الأراضي المباعة غالبا تدار من قبل الملاك من خلال (سراكيل)، مما أدى إلى سوء ظروف الفلاحين وتحويلهم إلى شبه أقتان مما أدى بهم إلى الهجرة نحو المدن الكبرى.

كانت البصرة ميناء مفتوح على بحار العالم والبعثات التجارية والإرساليات التبشيرية فلهذا كانت مناسبة جدا لسكنى المندائيين.

وبانتقال العراق من المرحلة الملكية إلى المرحلة الجمهورية، دخل المندائيون إلى المدارس الحديثة والجامعات والوظائف الحكومية، والأحزاب السياسية خاصة اليسارية الماركسية نظرا لانفتاحها (الماركسية) على الأقليات العرقية والدينية والقومية، ووصلوا إلى مراتب قيادية مثل مالك سيف سكرتير الحزب الشيوعي العراقي.

لقد تم بناء أول مندي (معبد) للطائفة في نهاية الستينات في بغداد، ثم بنت الطائفة معبدا بداية الثمانينات فيه رئاسة الطائفة والمجلس الروحاني الأعلى والمجالس الإدارية. ولقد ذابوا في المجتمع البغدادي مثل مئات المهاجرين مع بعض التجمعات حول سكن رجال الدين. كما أسسوا في بغداد نادي ثقافي اجتماعي عائلي خاص بهم الذي صودر بعد سقوط النظام.

- دول العالم المهجر:

لقد مرت أزمات كثيرة من الاضطهاد والقسوة على أبناء الطائفة، ولقد واجهوها بالانغلاق على أنفسهم والإكثار من التعبد والاستغفار والصلاة والدعاء لتخليصهم منها. مع ذلك كانوا يساهمون في تقديم الخدمات للمجتمع.

لقد وصل عدد الجمعيات المندائية الكبيرة والمنضوية تحت خيمة اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر إلى أكثر من عشرة.

وعلى الرغم من الحرية الدينية في المهجر إلا أن الطائفة عانت من صعوبات كأداء بعض الطقوس في البلدان ذات الأجواء الباردة ناهيك عن قلة رجال الدين الذين يقدمون خدماتهم الدينية في طقوس الزواج، الوفاة، التعميد والذبح...

لكن أبناء الجالية أثبتوا جدارة وتفوقا في الخارج من أمثال المهندس "نائر صالح" وغيره الذي تحصل على وسام استحقاق الجمهورية المجرية في تعريف العالم العربي بالثقافة المجرية. ومع ذلك كله بقيت علاقة الجاليات المندائية بمركز الطائفة مستمرة في العراق، إذ تعتبر رئاسة الطائفة في بغداد المرجع الديني الوحيد.

لقد بدأ العالم ومراكز البحث والدراسات بالاطلاع على تاريخ الطائفة وأبنائها وعقيدتها، وفي ذلك عقد مؤتمر عالمي عن المندائية سنة 1999 بـ هارفارد وآخر بـ كامبريدج، وذلك بفضل الصورة الحسنة لأبنائها في المهجر، مع تواصلهم الدائم مع هموم وطنهم الأم بمشاركة بكل ما يمس بلدهم.

المبحث الثالث: الواقع السكاني والملاح البشرية

لقد شبه بعض الباحثين الأوروبيين هذه الطائفة بالمتحجرات الحية لبقائها عصبية على الاندثار منذ آلاف السنين، فالיום تعيش عدة آلاف من المندائيين في العراق والبعض الآخر منهم في المهجر، إضافة لوجود كثيف بمناطق عربستان (المحمرة والأحواز) في إيران، وهم أبناء عمومة وامتداد لمندائيي العراق، إضافة إلى وجود ستة منادي (معابد) في العراق التي صاحب وجودها عدد مناسب من العوائل المندائية وهي: بغداد، البصرة، ذي قار، ميسان، ديالى، التأميم.

ويرى الباحث أن حال الطائفة اليوم (حتى تأليفه لهذا الكتاب) صعب جدا لما تعانيه من هجمة من قوى ظلمة تكفيرية، تهدمهم بالقتل والاعتصاب والسرقه والاختطاف إذ حدثت عشرات الحوادث مع الأقليات الدينية كالمسيحيين واليزيديين² والصابئة ولكن أبناء الطائفة وقفوا في وجهها.

كما تقوم الطائفة بأنشطة كثيرة منها الإعلام المطبوع في المجالات داخل العراق وخارجه مثل: "آفاق مندائية" و"المندائي" وخارجها مثل مجلة الصدى في السويد، وإشراكهم في عالم الإعلام المسموع مثل راديو "زبوا"، إضافة لمواقع النت الخاصة بالطائفة التي تتجاوز ست مواقع.

إن انضمام الأستاذ "صبيح مبارك مال الله" إلى المجلس الوطني المؤقت للعراق (البرلمان المؤقت) سنة 2004 يشكل أهمية كبيرة في تمثيل الطائفة في المؤسسات الرسمية.

الفصل الثاني: التحديد العام لمعنى "الصابئة" (ص ص 41-70)

المبحث الأول: تتبع تاريخي

يعود أقدم ورود لكلمة "صابئة" في اللغة العربية إلى القرآن الكريم في عدد من الآيات: المائدة69، الحج17، البقرة62، وقد اقترن ذكر "الصابئين" بتعداد الديانات المعروفة في الجزيرة العربية وهي اليهودية والمسيحية وأضيفت المجوسية (الزرادشتية) في إيران والعراق.

وبتفحص كلمة "صابئة" أو "صبه" لا نجد لها مدلولاً تاريخياً دقيقاً يدل على الطائفة الدينية الموجودة في العراق وإيران، أي أن المندائيين لا يطلقون على أنفسهم صابئة وهي بالنسبة لهم أقرب ما يكون إلى الخطأ الشائع الذي يستخدمه الآخرون لتسميتهم، وهو يعرفون أنفسهم بالمندائيين.

وفي المصادر المندائية نجد "صبا" واشتقاقاتها من المفردات المندائية الآرامية، إحدى لهجات المجموعة السامية التي كتبتها المخطوطات الدينية للطائفة.

وكلمة (صبا) غير المهموزة تعني التعميد أو التطهر بالماء كشعيرة دينية أساسية من شعائر المندائيين، ويطلقون عليها "صباغة" في استعمالاتهم اليومية، وعليه تكون (صبا) هي صبغ. وتشير السيدة "دراور" إلى المعنى الرمزي لكلمة "صباغة" هي أن المتعمد يدخل إلى الماء الحي أسوداً من الذنوب ويخرج منه أبيضاً متطهراً منه، حيث يقول المتعمد بالماء: "صببت بمصبوتا آد بهرام ربا" أي اصطبغت أو تعمدت بمعمودية الملاك بهرام الرباني.

عندما تناول علماء العرب في القرون الأولى من الإسلام كلمة صابئون، صابئين في تفسير القرآن في الفقه والمعاجم اللغوية نجد أن جذر الكلمة صبا أي خرج عن الدين إلى دين آخر، كما أطلق المشركون على النبي صلي الله عليه وسلم وجماعته (الصابئون) مقارنة لهم بالصابئة الذين يعيشون في جزيرة الموصل والذين يذكرون "لا اله إلا رب واحد".

لكن لأغلب الباحثين الغربيين رأي مخالف إذ يرى Pocock "بوكوك" أن كلمة صابئ مشتقة من العبرية سابا (saba) والتي تعني جيش أو قائد، كما أيد ذلك في الدراسات المندائية "ميشيل تارديو" Tardieu.

أما أقوى آراء العلماء الغربيين مثل "ويلهون جولسون" و"دراور" القائل أن الفعل مرتبط بالفعل السرياني "صب" "sb" أي (ينغمس، يغطس، ينصبغ، يتعمد).

كما يرجع بعض الباحثين المعاصرين استعمال المندائيين للفعل (صبا) الآرامي في طقس التعميد الرئيسي وهذا يسمى (مصبته) ويقولون كذلك في صيغة الأذان "انص صابا بمصبته شلي" (كل من تعمد بالمعمودية يسلم).

ويقولون في "التعميد" (الصباغة) "صببنا بمصبته اد بهرام ربه" أي تعمدت بعماد بهرام الربانيين، ولدهم الكثير من العبارات التي تذكر فيها "المصبته" في طقوسهم.

ويعتقد أن الأقوام المجاورون لهم منهم الآراميون قد أطلقوا عليهم اسم (الصابثون) أي بالآرامية: المغتسلة.

المبحث الثاني: آراء الباحثين في الصابئة

يورد الباحث رأيين ضمن قسمين :

أولاً: العلماء والباحثون العرب

تعتبر وفاة الخليفة العباسي المأمون (832م-833م) نقطة تحول في نوع وطبيعة الكتابات التأريخية الإسلامية لموضوع الصابئة المندائية فقد تمحورت حول هل اعتبار الصابئين من أهل الذمة؟ أما الكتابات المتأخرة بعد النصف الثاني من القرن 9م اعتمدت كثيراً على كتابات المسعودي، البيروني وابن النديم.

الصابئة حسب المصادر الإسلامية المبكرة قبل 832م-833م :

إن المناطق التي تواجد فيها الصابئة تركزت حول: الموصل، وأرض السواد وواسط.

أما بخصوص تعريف ديانة الصابئة فهي:

ديانة بين اليهودية والمجوسية حسب الحسن البصري وابن جريح.

وبين اليهودية والنصرانية حسب الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان وغيره.

أما ع. الله بن عباس اعتبرها فرقة من النصرانية.

بينما اعتبرها عبد الرحمان بن زيد دينا مستقلا.

وفيما يتعلق بمعتقداتهم وطقوسهم أشار وهب بن منية وعبد الرحمان بن زيد بأنهم يعتقدون بإله واحدا وأضاف الخليل بن أحمد الفراهيدي بأنهم يعتقدون بأنهم من أتباع النبي نوح عليه السلام، لكنه أضاف بأنهم يؤلهون الملائكة ويتطابق هذا مع رأي الحسن البصري وابن جريح، أما أبو الزناد فذكر بأنهم يؤمنون بالأنبياء السابقين ويصلون خمس صلوات ويصومون ثلاثين يوماً في السنة. الصابئة حسب المصادر الإسلامية اللاحقة بعد وفاة الخليفة المأمون:

لابد من الإشارة إلى أن أغلب المؤلفين الذين كتبوا عن هذه الطائفة اعتمدوا على الرواية الشفوية كمصدر أساسي، غير أنها عرضة للمصادقية وأهلية الرواة والتحقق من المروي، وهذا بسبب تكتم الصابئة عن كتبهم الدينية وطقوسهم عن الغرباء وعدم المعرفة باللغة المندائية مما لا يؤهلهم للاطلاع على الأدب المندائي الديني.

ثانياً: العلماء والباحثون الغربيون

يرى الكاتب أن الغرب تعرفوا على الصابئة من خلال المبشرين الذين قدموا إلى البصرة في ق 16م وكان مبشروا الجسوتي البرتغال قد قدموا إلى الخليج العربي خلال تلك الفترة، وهنا يمكن إيراد أهم المحطات التالية:

أول إشارة لالتقائهم بالصابئة في التقرير 1555 الذي يشير إلى أن الصابئة قوم ينتمون إلى فرقة "يوحنا المعمدان" المسيحية.

رسالة من "غوا" المستمرة البرتغالية في الهند التي تضمنت تصحيحات وتوضيحا بأن هناك عدد كبير من المسيحيين الذين يتبعون "يوحنا المعمدان".

ثم رسالة 1615 ترى أنهم طائفة مستقلة.

كما رأى الرحالة الايطالي "ديلو غليو" Dilo glio أنها طائفة تعرف بـ المنداي أو صابي دعاهم المبشر الكاثوليكي "اغناطيوس" بإتباع "يوحنا المعمدان".

والمحوظ من خلال الكاتب أن هناك خلطا كبيرا في التسميات والأوصاف حول هذه الطائفة حتى القرن الثامن عشر.

لكن حسب الكاتب ورغم الأعمال الدائرة حولهم من طرف الباحثين والتراجم فإن الدراسة المندائية التي تمثل الخطوة الحاسمة في إرساء الأسس العلمية الرصينة كانت على يد "ولهم براندت" Brandt في مؤلف "الدين المندائي" 1889 و"ليدزباركي" "Lidzbarski" الذي عمل على ترجمة وإعداد طبعات نقدية لأهم الكتب المندائية ك: دراسته "اديخيا" 1905.

ثم توالى الدراسات الجادة في الموضوع، حيث تعتبر السيدة "دراوور" أشهر المختصين في هذا الحقل.

الجدير بالملاحظة أن الكاتب رأى أن الدراسات الأولى كانت مدفوعة بدافع التبشير المسيحي، بينما تناولتها الدراسات اللاحقة من جانب أصل الديانة. وتعتبر دراسة السيدة "دراوور" دراسة أنثروبولوجية.

المبحث الثالث: موقع الصابئة من الأجناس البشرية

يورد الباحث قول الكثير من الباحثين بأن الصابئة المندائيين طائفة دينية وليست مجموعة عرقية أو أقلية اثنية.

تعتبر اللغة المندائية فرع من فروع الآرامية (من مجموعة اللغات السامية)، فمن هم الآراميون؟ كان الآراميون قبائل من الرحل في بادية شمال الجزيرة العربية تمارس الغزو والسطو، سكنت ضفاف وادي الفرات الأوسط في منتصف 2000 ق.م، حيث نشأت قوميتها ولغتها، ولم يكتسبوا اسم الآرامية الآراميين حتى أيام (تغلات فلاسر الأول) في 1100 ق.م.

وقد لعب التجار الآراميون دورا مهما في نشر اللغة الآرامية التي تعد المندائية أحد لهجاتها.

تعد دراسة "هنري فيلد" المرجع في ذلك، إضافة إلى الأنثروبولوجية الليدي "دراوور" التي وصفت الطبقة العليا: الأسر الكهوتية ذات النسب النقي، والتي تنقسم إلى نوعين:

1/ قوي أسمر اللون، أسود العينين.

2/ طول أبيض أو برونزي قليلا مع عيون زرقاء مائلة إلى السواد وتبلغ 3 في كل 12. أما الفقراء سكان الأهوار العراق وجنوب إيران فهم أقتم بشرة، أضال جسما من الفئة الكهوتية. عموما فالقوة والجمال والأنف الكبير الطويل الأفتى هي سمات مميزة للفرد المندائي. أما دراسة "هنري فيلد" فهي أكثر تفصيلا ونختصر منها فقط النساء الصابئيات اللواتي اعتبرن الأكثر جمالا من جاراتهن، إذ تتميز غالبا المرأة المندائية بشعر أسود فاحم مع تموجات قليلة وعيون شهل وأنف مستقيم أو محدب، متوسطات الطول، مع قصر في أرجلهن، وضيق جباههن، إلا أن رؤوسهن عريضة.

وبما أن التبشير المندائي غير موجود والمندائي يجب أن يكون من والدين مندائيين، لذلك الصفات الجسدية تكون مغلقة ضمن الطائفة بالتالي تعتبر الطائفة أقلية عرقية دينية.

الفصل الثالث: النسق الديني-المفاهيم (ص ص 71-110)

المبحث الأول: المعتقد والمنظار الكوني

1/ الخالق:

وردت صفات الخالق في الكتاب المقدس للصابئة المندائيين "كنزرايا": ليس له أب يكبره أو أقدم منه، ولا مولود كان قبله ولا أخ يقاسمه الملكوت، ولا توأم يشاركه الملك، مسيح ومبارك، أنت إلهي في كل إلى الأبد. أنت منذ البدء وباق لما لا نهاية.

2/ الخليقة (الإنسان- الأرض- الكواكب):

مر خلق الإنسان عبر مرحلتين:

1.2 تكوين جسم الإنسان بأمر من الهي العظيم.

2.2 إلقاء النفس أو الروح "نشمتا" في الجسد بأمر من الهي العظيم وقد حملها الإثريون "الملائكة".

- كان الخلق بالكلمة نجد مثلا "بميمرخ هواكل مندام" (بكلمتك أيها الهي العظيم خلق كل شيء).

- ويشير نص آخر إلى خلق الأرواح أو الملائكة أو الكائنات النورانية: (بكلمتك أيها الهي العظيم خلق اثري وهو الملائكة ومفردها اثري).

- وقد تكون خلق الحياة عبر أربعة مراحل، نشأت الكواكب السبعة في المرحلة الرابعة.

المبحث الثاني: المقدسون

هناك القدسية الكبرى للكائن الأعلى والمزه عن كل الصفات المادية.

وتتجسد الحياة العظلى بشكل سطحي مجرد غامض ويكون الحديث عنه دائما بصيغة الجمع، ورمزها

هو الماء الهي "بردنا". ثم يأتي تقديس الأنبياء والرسل بالمرتبة اللاحقة.

ثم يأتي تقديس الهيئة الكهنوتية التي تسير الأمور الدينية، ثم أخيرا تقديس الكتب المقدسة.

1/ الملائكة:

كائنات شبه إلهية موكلة بحمل إرادة الهي العظيم وتنفيذها.

2/ الأنبياء:

لا يشير الدين المندائي إلى كثير من الأنبياء، إلا أن الكثير من الاثريين يقومون بمهام الرسالة من الهي العظيم إلى البشر، يؤمنون بأدم أول الأنبياء وادريس، وعرف الكتاب الذي جاءهم بـ"كثرة" وكذلك نوح وابنه سام هو جد هم الأعلى.

والنبي الأكثر وضوحاً وتأثيراً هو يحيى بن زكرياء عليه السلام المدعو بـ"يهيا يهيانا"، والذي خلق من الماء بمعجزة من الهي العظيم "اليردنا" لأن والداه عجوزان.

3/ الكتب المقدسة:

يعتبر "كتزاريبا" الكتز العظيم (صحف آدم) الكتاب المقدس الرئيسي للطائفة، يحتوي على "بونات" تماثل السور، تنقسم إلى تسبيحات، يحتوي على جزئين:

"الكتزايمين": الخليقة، نظام الكون، خلق آدم، العقاب قصص الأنبياء

"الكتزاييسار": يعالج خروج الروح ورحلتها وطقوس الموت.

ثم الكتاب الثاني "دراسة اد هيا" (تعاليم يحيى بن زكريا): يضم مجموعة من التراتيل حول النبي يحيى ونشأته. إضافة إلى كتب أخرى متفرقة.

4/ الهيئة الكهنوتية: تمثل طبقة رجال الدين، وهم يندرجون ضمن:

الحلالي: مرحلة تهيئة قبل الترميزة وهي تلميذ.

ثم الكتزابرة: وهو التلميذ مرقى إلى درجة أعلى.

ثم الريش أمه: وهي تعني رئيس الأمة وهي أعلى الدرجات، وتتطلب كل مرحلة شروط وممارسات ومواصفات معينة.

المبحث الثالث: الملابس الدينية والأعياد المندائية

1/ الملابس الدينية: ترتدى تقريبا في كل الطقوس، في التعميد، والزواج، والذبح، وحمل الجنازة، وتسمى

"رسته" وهي تختلف بين المندائي العادي ورجل الدين تخاط يدويا بخيوط قطنية، أو حريرية من لون أبيض، يخاط القميص على عرض القماش، وتحوي العمامة في أحد طرفيها على بداية طول القماش.

وتحوي الرسته من:

سدرة: قميص طويل يشبه الزي الهندي.

دشة: تشبه الجيب تقع في يمين القميص.

شروالا: سروال (بنطال) يصل إلى القدم.

تكة: عبارة عن حزام السروال.

برزينقا: العمامة.

نصيفة: تشبه الوشاح.

هميانية: حزام من صوف، مع ملابس إضافية لرجال الدين.

2/ الأعياد المندائية:

العيد الكبير: رأس السنة المندائية 27-28 تموز.

العيد الصغير: ينزل أكبر الملائكة "هييل زيوا" لقمع قوى الشر.

عيد الخليفة بروانايا: 24 آذار يتم فيها التعميد الجماعي، وإطعام الفقراء، والترحم على الموتى. ..

عيد ذهب ايد ايمانه: عيد مولد النبي يحي.

عيد العاشورية: أواخر كانون الثاني.

الفصل الرابع: النسق الديني-الطقوس (ص ص 111-154)

المبحث الأول: دور الكواكب، دور الماء، دور الملائكة في الطقوس

نكتفي فقط بدور الماء والملائكة.

1/ دور الماء:

استنتج المؤلف أن "بردنا" هي نور الله المتجسد في الماء، وهي المادة التي تزود منه الكائنات الأثرية

والأرضية على حد سواء بالقوة والحياة. والماء الحي-مياهي-يردنا- هو جوهر طقس التعميد المندائي.

2/ دور الملائكة:

تتم عملية خلق الإثري بكلمة من الإله، والذين مهمتهم تنفيذ أوامر الهي العظيم -هي ربي-

وعالم النور العلوي المكون من ثلاث طبقات: العليا، الوسطى، والسفلى هي على التوالي: -آلمه دنهورا ايلايا،

الملة دنهورا ميصايا، والملة دنهورا تيتايا- ويوجد الإله في أقصاها، ويدخل ذكر الملائكة في كل طقوسهم

الوضوء "الرشامة" والصلاة "البراخا" والمعمودية إذ يقال: "تعمدت بعماد بهرام ربا"، وطقوس سلام الحياة

(جزء من التعميد والوفاء والزواج والذبح).

المبحث الثاني: الصوم والصلاة

1/ الصوم "صوما": الصيام الأكبر لدى المندائي هو الكف عن الأذى، يصوم المندائيون ما يبلغ ثلاث

وثلاثون يوماً تسبق الأعياد الدينية أو تلحقها.

2/ الصلاة "البراخا": فرضها "منداد هي" (عارف الهي) وهو ملك، خمس صلوات يومياً بعد الوضوء

"الرشامة" نحو القبلة "بيت هي" باتجاه الشمال، تقرأ فيها التراتيل الخاصة كما لها نواقض ومبطلات.

المبحث الثالث: التعميد (الاغتسال)

يعبر الماء عن الحياة ويعتبر الاغتسال بالماء الطقوس الرئيسي للصائين، وذلك بالماء الحي الجاري "البردنا".

واحتفالات التعميد ثلاثة أنواع، الحد الأدنى الرشامة (الوضوء)، والثاني هو ثلاث ارتماسات في النهر تسمى (طماشة) للتطهر من النجاسات الصغرى، أما النوع الثالث من التعميد فهو مصبتا (التعميد الكامل)، يجري بمعرفة رجل دين (شيخ) وشاهد (اشكندا) وبقراءة تراويل دينية.

المبحث الرابع: طقوس الزواج

يؤكد الدين المندائي على أهمية الزواج ويعتبر العزوبة إثما كبيرا، يبدأ الزواج بالخطوبة بشكل عادي، ثم تلي ذلك مرحلة التأكد من عذرية العروس، تبدأ الطقوس صباح الأحد بذهاب العروسين وعائلتهما إلى المعبد، ثم تبدأ إجراءات التعميد لكلا العريس، ثم بعد ذلك يتم تهيئة الأشياء المعنية، ثم يشرع في العقد.

المبحث الخامس: طقوس الموت ومصير الإنسان

يعتقد المندائيون أن الجسد من تراب وهو فان إذ يعتبر وعاء النفس التي هي نسمة من ذات الله ويجب على المندائي المريض الذي هو على فراش الموت التهيئة اللازمة من تطهير وليس الملابس الدينية لمغادرة النفس وعند بلوغه مرحلة الاحتضار تبدأ مراسيم تهيئته.

الفصل الخامس: طبيعة الكيان الاجتماعي ونسق القرابة (ص ص 155-186)

المبحث الأول: طبيعة الكيان الاجتماعي

تعتبر الثقافة المندائية فرعية (sub-culture) من الثقافة العراقية. وكذلك البناء الاجتماعي للطائفة وعاشت طائفة الصابئة المندائية ضمن وحدات قرابية كبيرة (العشيرة) لأنهم لا يملكون أراضي، ويحدد الكاتب العوائل المندائية ومناطق تواجدها، ولأنهم أقلية اضطروا للعيش في وسط إسلامي عشائري، يدافع عنهم مع عدم مشاركتهم في الحروب، ودفع مبلغ مالي للحماية.

المبحث الثاني: نسق القرابة

1/ نظام العلاقات القرابية:

القرابة نسق مبني على أساس خط النسب الأبوي، وهي لا تقوم بوظائف القتال ولا الزراعة ولا تمتلك ديرة أو ريعا، بالتالي فهي أقرب إلى العوائل المدنية، تؤدي وظائف التكافل الاجتماعي والتواصل والمساعدة، كما تشهد الطائفة تداخل كبير بين علاقات المصاهرة والقرابة بحكم صغر حجمها ونمط الزواج الداخلي الذي يكون غالبا من أبناء العمومة.

إضافة لوجود مجلس عموم الطائفة: الهيئة العليا الممثلة لجميع العوائل وفق نظام داخلي لتسيير شؤونها.

2/ نظام الزواج:

الزواج داخلي مع عدم سماح الدين بالتعدد لكن لبعض الضرورات التي فرضها الواقع كالمريض، أو العقم يسمح بذلك -مع مرورها ببعض الظروف التي كادت تؤدي بحياة رجال الدين- وشرط العدل، ويبقى للزوجة الأولى الأولوية في المشاركة في الطقوس، والطلاق غير مباح إلا في حالات استثنائية جدا.

3/ نظام الأسرة:

تمثل العائلة المندائية التقليدية عائلة أبوية تعود السلطة المركزية فيها للأب ثم يأتي بعد ذلك دور الذكور ثم الأم والبنات، وذلك لتأثر المندائيين بالبيئة الاجتماعية المحيطة بهم برغم كون المرأة لها مكانة مميزة عندهم، حيث كانت تعنى فقط بأعمال المنزل، بخلاف مثيلاتها المسلمات اللواتي كن يمارسن الزراعة والرعي بحكم النشاط.

وقد استحدثت الطائفة محكمة شرعية عصرية لعلاج مشكلات الأسرة والزواج، كما يرصد الباحث تغير وضع المرأة من خلال الدراسة والعمل، مع تغير نمط الأسرة من الممتدة إلى النووية.

المبحث الثالث: نسق الضبط الاجتماعي

يجد المؤلف وجهين يتمثل الأول في ضبط نمط السلوك المتوقع داخل الطائفة عن طريق وسائل الضبط المتمثلة في المعتقدات، الطقوس، العادات، والمكانة الاجتماعية والدور الاجتماعي، أما الثاني فهو ضبط السلوك المتوقع بين الطائفة ومحيطها الاجتماعي وهو يقوم على العادات والتقاليد والقوانين الوضعية.

الفصل السادس: النسق الاقتصادي (ص ص 183-204)

المبحث الأول: النشاطات الاقتصادية في البيئات التقليدية

شكلت المهن الحرفية النشاط الرئيسي للطائفة لاعتبارات سبق ذكرها، وذلك منحهم وضعاً اجتماعياً لا بأس به.

إضافة لاعتمادها زراعة معاشيه تطورت لاحقاً لتصبح على نطاق أوسع محلي وعالمي، ثم اعتمدت على الصيد بحكم تواجدها في المناطق ذات المياه الوفيرة التي تمثل موطناً للطيور والأسماك، وانتمائها كذلك لغابات القصب والبردي سمح لها بقيام صناعة بسيطة كحياكة الحصر والأثاث البسيط وتربية الجاموس بحكم هذه البيئة كذلك.

المبحث الثاني: المهن في البيئات التقليدية

إن أهم المهن التي أجادها المندائيون وتميزوا فيها هي:

الصناعات المعدنية المتمثلة في الحدادة لتوفير الأدوات وإصلاح الأسلحة إضافة إلى القيام بأعمال النجارة بصناعة وإصلاح الزوارق وصناعة الأثاث المنزلي، إضافة لامتثالهم الصياغة.

المبحث الثالث: الواقع الاقتصادي في المدن

اشتغل الصابئون بالحرف وعند انتقالهم إلى بغداد لم يتبعوا في البحث عن عمل بسبب تهيئة أقرانهم الوضع مسبقاً لهم، وأدخلوا أولادهم المدارس الحديثة أملاً في الحصول على وظائف حكومية. يشهد النسق الاقتصادي للطائفة تراتياً اجتماعياً فالمملكية تمثل أحد المعايير المهمة في تحديد المكانة الاجتماعية، إضافة إلى أن المكانة الاقتصادية المرتفعة تمنح الفرد مكانة اجتماعية مهمة، وهكذا.

الفصل السابع: التغيير الاجتماعي (ص 205-235)

المبحث الأول: البيئة الجديدة والتأقلم

أنشأ التغيير في نمط الحياة من حياة ريفية بسيطة إلى حياة مدنية متفتحة نتج عنه تغيرات في بناء القوة ومراكز القيادة في الطائفة مع تغيرات في بنية العائلة من ممتدة إلى نووية، كذلك تغير مكانة المرأة ودخولها المدارس الحديثة والوظائف العامة والمشاركة في قرارات العائلة مع تغير ثقافي في مجال اللغة التحول من اللغة الأرامية العراقية العربية، مع اتجاه شبابها لممارسة المهن الحديثة وانصرافهم عن المهن التقليدية مع بعض التطويرات والاحتفاظ بمهنة الصياغة مثلاً.

المبحث الثاني: الواقع الجديد لبناء القوة والقيادة الاجتماعية والروحية

1/ الشيخ الجديد:

كانت علاقة رجال الدين بأبناء الطائفة تكاملية إذ يعتمد غالباً عليهم اقتصادياً بمنحه أجور قيامه بالطقوس فيما يمنحهم أجور دينية (أخرية).

بقيت الطائفة بدون مؤسسات تمثلهم لمئات السنين، حيث اكتفوا بهامش حرية بسيط لممارسة الطقوس، لكن مع التطور والتغير الحاصل أسست الطائفة (هيئة التولية) ثم (نادي التعارف) ثم المجلس الروحاني الأعلى للطائفة الذي يتولى شؤونهم، وأنهى معظم رجال الدين دراساتهم في المدارس الحديثة. أما لباسه فلم يكن هناك لباس مدني مميز بخلاف اللباس الديني الرستة، فقد أصبح يلبس اللباس العربي، ولباس مشابه للباس رجال الدين المسلمين كما يلبس الملابس الحديثة كالبنطال والقميص مع القلنسوة.

2/ التغيير في المعبد:

المعبد أو "بيت مند" أو "بيمندا" "مشكنة" بناء مكون من غرفة صغيرة جدا في الباحة الخلفية المطلة على النهر المبني من حزم القصب المملط بالطين.

واليوم تقيم الطائفة شعائرها في ساحة مظلة على النهر تحت جسر الجابرية بعد جفاف نهر الخر بالقادسية في انتظار بناء معبد جديد أكبر حجما.
3/ تأثير التعليم والثقافة على التغيير الاجتماعي:

يعد موقف الطائفة ايجابي تجاه العلم وتعتبر من السياقين في إدخال أطفالها إلى المدارس الحديثة لما لها من مكانة ودور اجتماعي، كما شجعهم امتهانهم للحرف على تطوير عددهم وطرق إنتاجهم للارتقاء بالواقع الاقتصادي، وبدخول أبناء الطائفة للمدارس الحديثة والكليات جر بهم للمعترك السياسي، مع هذا أراد أبناء الطائفة الحفاظ على التراث الديني ومثال ذلك مشروع إحياء اللغة المندائية، ومشروع ترجمة الأدب الديني المندائي إلى اللغة العربية.

المبحث الثالث: تغير موقع المرأة

يعتبر وضع المرأة المندائية وحقوقها الشرعية جيدة مقارنة ببقية الأديان فهي مكرمة في ميثولوجيا الخلق الأول إذا خلقت عن نفس طينة آدم.
كانت في الفترة التقليدية تحت سلطة أبوية تعود فيها الصلاحية للرجال فيما يخص حياتها ومستقبلها وزواجها، ثم سلطة الزوج فالأبناء الذكور.
ومثلما ذكر سابقا أنها لم تكن تعمل أبدا، بسبب امتهان الرجال للحرف مع قيامهن ببعض أعمال الخياطة للحاجة المنزلية فقط، مع التحاق بعضهن من الثريات بالتعليم في الكتاتيب.
كما دخلت مبكرا للمدرسة الحديثة وعملت في مجال الطب، التعليم والهندسة والسياسة كذلك.

بحكم الظروف الصعبة كالحروب والحصار الاقتصادي مع قلة عدد الطائفة أنتج ذلك خلا ديموغرافيا نقص فيه عدد الرجال مقارنة بالنساء مما قلل فرص الزواج - خاصة وأنه يشترط أن يكون داخليا- مما ساهم في انتشار عدم الزواج، مع ازدياد التحديات الاقتصادية للدخول لمؤسسة الزواج، ناهيك عن هجرة العديد من شباب الطائفة في التسعينيات نتيجة الضغوط الاقتصادية، كل هذا مع اشتراط عندية المرأة للزواج. وتشهد المرأة انخفاض شديد في نسبة الأمية، كما يشير الكاتب إلى إلزامية ارتداء المرأة لحجاب يستر الرأس والذراعين عند أداء الطقوس.

المبحث الرابع: تغير موقف الطائفة في الانفتاح على المجتمع

لقد ظلت الطائفة منغلقة حتى مطلع ق20م. وبمجيء ح ع 1 ظهرت أولى بوادر الانفتاح بتعيين الاحتلال البريطاني عبر قيادته العسكرية لرؤساء الطوائف حيث كان رئيس الطائفة الشيخ عيدان يتبادل المراسلات مع الاحتلال ومع هجرة أبناء الطائفة من الجنوب نحو البصرة وبعداد بدأت البوادر الحقيقية للانفتاح.

كما لجأ بعض مثقفي الطائفة في السبعينيات والثمانيات إلى ترجمة بعض كتب الأدب المندائي وذلك إسهاماً منهم في مجال التعريف بالطائفة.

ثم توالى النشاطات التي تبلور الهوية الدينية للطائفة، فتم عقد المؤتمر الأول للطائفة بداية التسعينيات وإصدار دورية خاصة بالطائفة تطورت مع الوقت ثم تأسيس مركز البحوث والدراسات المندائية الذي يهدف إلى انفتاح الطائفة والتعريف بها. ومع هجرة أبنائها للخارج نظموا أنفسهم في جمعيات وأندية للحفاظ على الهوية والثقافة الدينية في أوروبا وأمريكا وأصدروا مجلات ودوريات، إضافة إلى المواقع الإلكترونية والإذاعات. إلى أن وصلت إلى تشكيل اتحادات دولية كاتحاد الجمعيات المندائية في المهجر.

خاتمة:

على غرار بعض الدول العربية التي تتميز بالتنوع العرقي كالجزائر ولبنان، تعتبر العراق من أكثر الدول عرقية، والصابئة المندائية إحدى هذه الطوائف التي تعتبر من الأقليات العرقية والدينية التي تعيش فيها، والتي تستدعي الاهتمام والبحث، وتعد مساهمة الباحث أحد المحاولات الجادة والأكاديمية القليلة التي تندرج ضمن الدراسات الأنثروبولوجية، لهذا سعت هذه الورقة لتلخيص أهم الجوانب الاجتماعية الثقافية التي تعرف بهذه الفئة، غير أن الملاحظ هو أن العولمة والتغيير الاجتماعي مارست تأثيرها حتى على المجتمعات الكبيرة ومست كافة مناحي الحياة الاجتماعية مما غير من الملامح الأصلية لهذا المجتمع المندائي.

هوامش:

1. الآرامية لغة سامية شرقية-أوسطية، انطلقت مع قيام الحضارة الآرامية في وسط سورية وكانت لغة رسمية في بعض دول العالم القديم ولغة الحياة في الهلال الخصيب، كما تعد لغة مقدسة. تعود بدايات كتابتها للقرن العاشر قبل الميلاد إلا أنها أصبحت اللغة المسيطرة في الهلال الخصيب بدأ من القرن الخامس قبل الميلاد بعد هزيمة المملكة الآشورية، وقد كتب بها سفر دانيال وعزرا، ومخطوطات البحر الميت، وهي اللغة الرئيسية في التلمود. من المؤكد أن الآرامية هي لغة يسوع المسيح، وبها تأثرت اللغة الفارسية والعبرية واليونانية واللاتينية.

قائمة المصادر والمراجع:

- رؤوف سهباني. (2006). *الصابئة المندائية في إيران*. دار المحجة البيضاء.
 شهيد صادق الطائي. (2005). *سحر الفضة سر الماء*. بغداد: المجلس الأعلى للثقافة.
 عزيز سباهي. (1996). *أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية*. سوريا: درا المدى.
 محمد نمر المدني. (2009). *الصابئة المندائيون: العقيدة والتاريخ*. دار رسلان.

نبيل عبد الأمير الربيعي. (02 فيفري 2020). الصابئة المندائيون في العراق. *صحيفة المثقف*.
نبيل عبد الأمير الربيعي. (2020). *تاريخ الصابئة المندائيون في العراق أصولهم ومعتقداتهم*. سوريا: دار
الفرات.